أهمية النص المناقبي في كتابة التاريخ الحضاري للمغرب الأوسط

The importance of virtue text in the writing of civilization history in the central Maghreb

د(ة) بلمداني نوال

الرتبة: أستاذة محاضرة "أ"

المقر المهني: جامعة مصطفى اسطمبولي– معسكر، الجزائر

البريد الالكتروني: naouel.belmaddani@univ-mascara.dz

الملخص:

يحتاج الباحث للكتابة في التاريخ الحضاري إلى مادة مصدرية متنوعة، وفي الغالب يكون الاعتماد على المصنفات الكلاسيكية، لكن وبظهور مناهج علمية مختلفة، وعلوم مكملة لبعضها البعض، لم يعد البحث التاريخي مقيدا بنوع معين من المصادر، لينفض بذلك الغبار عن المصادر الدفينة حتى يتسنى للكتابة التاريخية الخروج بمعطيات ونتائج جديدة، أغفلها الباحثون في الفترات السابقة، ومن بين المصنفات المقصودة "المصادر المناقبية". فكثيرا ما أعطى الاهتمام بسير الأفراد أو مجموعة منهم والتأليف فيها نتائج مثمرة، ومن هذا المنطلق تم اختيار ورقة بحث بعنوان "**أهمية النص المناقبي في كتابة التاريخ الحضاري للمغرب الأوسط**"، والهدف من وراء هذه الورقة هو إبراز القيمة التاريخية للنص المناقبي.

Abstract

The researcher needs a diverse written sources to write the history of civilization. Often, the referent is the classic collections, most of the time we rely on classic books, but With the appearance of different scientific method, and the complementary science. Historical research is no longer restricted to a written source type, to reveal the buried sources so that historical writing can produce new data and results, neglected by researchers in previous periods, among these documents are the virtues books.Often, Interest in the privacy of people and groups and to write their biography, gave good results, For this, the choice was made on a subject entitled " **The importance of virtue text in the writing of civilization history in the central Maghreb"**.The purpose of this topic is to demonstrate the historical value of the virtues texts.

Keywords: Ibn marzouk, texts virtues, the central Maghreb, civilizations of history, Agriculture, arts and crafts

تشكل كتب المناقب صنفا متاحا من المصادر الغنية بالمعطيات حول الثقافة المادية على الخصوص، كما أنّها من المصادر غير المباشرة التي تساعد على الوصول إلى معطيات مغيّبة تماما في أغلب المصادر الكلاسيكية التي يغلب عليها الحضور القوي لرجال السلطة بأبهتهم، ونخبة المجتمع. ذلك أن دراسة كُتب المناقب، تسمح برسم بعض معالم الواقع المعيش لأفراد المجتمع بمختلف حالتها من فقر وغنى، ولدراسة أهمية هذا النوع من المصنفات بالنسبة للكتابة التاريخية بالمغرب الأوسط تم إختيار مصدر مناقبي مهم حفظ بين صفحاته معطيات تاريخية هامة ساعدت الباحث في التاريخ الحضاري للمنطقة على رسم صورة واضحة عن المجتمع بحاضرة تلمسان وضواحيها خلال الفترة الزيانية، وهو "**المناقب المرزوقية**"، لمؤلّفه ابن مرزوق الخطيب (ت781هـ/ 1379م)، وتكمن أهميته المصنف في كون صاحبه شاهد عيان للكثير من الأحداث والوقائع عاصر بعضها، ونقل الآخر رواية عن المقربين له ولأفراد أسرته.

وضع ابن مرزوق هذا المصنف المناقبي ليحفظ السيرة الذاتية لسلفه الصالح، والذين عرفوا على أنهم أهل زهد وأصحاب كرامات، تميزوا بالقيم والمبادئ الدينية، ونبذ حياة الدنيا وزينتها، إذا لا يمكن ان نتعرف على سلالة المرازقة وجذورها، وما أنجبته من أعلام بدون الرجوع للمناقب المرزوقية، كما يؤرخ ابن مرزوق للسلاطين الذين عاصروا أسلافه، كما أنّه يزودنا بمادة علمية جديدة عن التاريخ الاجتماعي والاقتصادي، وبعض العادات والتقاليد الخاصة بالمجتمع[1]، ونظرا للقيمة التاريخية للمناقب المرزوقية تم اختيار ورقة بحثية بعنوان "**أهمية النص المناقبي في كتابة التاريخ الحضاري للمغرب الأوسط**"، وقبل إبراز أهمية النص المناقبي في كتابة التاريخ الحضاري للمغرب الأوسط، وجب الوقوف عند مصطلح "**المناقب**"، من حيث المفهوم والدلالة.

*** المناقب: المفهوم والدلالة**

المناقب جمع منقبة وأصلها "منقب" وقد أسهب ابن منظور في تعريفه بمادة "منقب" فقال: "... فِي فُلَانٍ مَنَاقِبٌ جَمِيلَةٌ، أَيْ أَخْلَاقٌ. وَهُوَ حَسَنُ النَّقِيبَةِ أَيْ جَمِيلُ الْخَلِيقَةِ. وَإِنَّمَا قِيلَ لِلنَّقِيبِ نَقِيبٌ؛ لِأَنَّهُ يَعْلَمُ دَخِيلَةَ أَمْرِ الْقَوْمِ، وَيَعْرِفُ مَنَاقِبَهُمْ، وَهُوَ الطَّرِيقُ إِلَى مَعْرِفَةِ أُمُورِهِمْ. قَالَ: وَهَذَا الْبَابُ كُلُّهُ أَصْلُهُ التَّأْثِيرُ الَّذِي لَهُ عُمْقٌ وَدُخُولٌ"[2]، ويضيف ذات المؤلف: "والمنقبة: كرم الفعل، يقال: إنه لكريم المناقب من

[1]– نوال بلمداني، ابن مرزوق الخطيب وكتاب المناقب المرزوقية، عصور الجديدة، مختبر البحث التاريخي، تاريخ الجزائر، جامعة وهران، الجزائر، العدد 3–4، 2011، صص83، 99.

[2]– ابن منظور، لسان العرب، دار صادر، بيروت، داط، دات، باب النون، مادة نقب، ج14، ص332.

النجدات وغيرها، والمنقبة: ضد المثلبة"[1]، ويعرّف الفيروزآبادي المنقبة على أنّها المفخرة[2]، أمّا النَّقِيبَةِ فيقول هي "النفس، والعقل، والمشْوَرَةُ، ونفاذ الرأي"[3].

وورد في احد الدراسات المرجعية أنّ المنقبة هي المفخرة والفعل الكريم وما عرف به الإنسان من الخصال والأخلاق الحميدة، وشهد هذا المصطلح نوعا من التطور عبر مراحل مختلفة، وانتهى به الاقتران بمعنى خصال القدوة في فعل الخير والجرأة على صونه، وحمل الناس على الاهتداء به، فهي نماذج القدوة القيميّة والسلوكية التي يسعى الإنسان دوما إلى إتخذها مثلا عليا يهتدي بها[4]، ويقصد بها أيضا الفضيلة ليس في مدلولها الأخلاقي فحسب، وإنّما جميع الخصال التي اعتبر بها العامة من الناس وأولاها مخيالهم مكانة خاصة[5].

وفي ظل التطور الذي شهده مدلول مصطلح "المناقب" نجدها تطلق على مؤلفات تراجم ذات صبغة تمجيدية ارتبطت في مرحلة من مراحل تطورها في نطاق الحضارة الإسلامية بالحديث عن سير الأولياء وكراماتهم[6]، وتشير الباحثة خديجة السمعلي إلى انّ مصطلح المناقب يطلق على الصوت المغيب والرافض والمطموس والتعبير الدفين داخل نفس المحيط المتصلّب ذاك الذي تكرّسه على أرض الواقع شخصية الولي، وهي تعبير في بعض الكتابات، وترى أنّ النص المناقبي يستدعي هذه الشخصيات ويحتفي بها، مما يجعله وما يطبعه من طابع عجائبي لا يقل قيمة عن النص التاريخي أو الحضاري في كتابة وتوضيح الكثير من الجوانب الاجتماعية والثقافية الغامضة في تاريخ المجتمعات[7]، وعليه النص المنقبي ليس سلسلة من السير النمطية المليئة بالفتوحات الربانية، والمشاهدات والكرامات البعيدة عن الواقع، بل يساعد على دراسة المتخيل الجماعي والعلاقة بين المتخيل والممارسة الاجتماعية، مفصحًا عن

---

[1]–ابن منظور، المصدر السابق، ص332.

[2]– الفيروزآبادي، القاموس المحيط، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ط8، 2005، ص139.

[3]– المصدر نفسه، ص139.

[4]– خديجة السمعلي، الفكر الصوفي من خلال مناقب أبي سعيد الباجي، مؤسسة مؤمنون بلا حدود للدراسات والأبحاث، المملكة المغربية، الرباط، ص4.

[5]– لطفي عيسى، مدونة المناقب ببلاد المغرب من القرن 10 إلى 17م عرض منهجي، المجلة التونسية للعلوم الاجتماعية، تونس، العدد 130، 2005م، ص41.

[6]– هشام عبيد، تونس وأولياؤها الصالحون في مدونة المناقب الصوفية، مركز النشر الجامعي، تونس، 2006، ص50.

[7]– خديجة السمعلي، المرجع السابق، ص5

رموز لا تخلو من فائدة تاريخية[1]، وتعدّ تراجم الصلحاء وبناءً على السير المنقبية مستندات لتوثيق التاريخ الاجتماعي، والأنثروبولوجي للصلحاء في تفاعلهم مع محيطهم الجغرافي[2].

بعد تصفح عدد من المصنفات المناقبية الخاصة بتاريخ المغرب الأوسط، تم تصنيفها إلى "**مصنفات مناقبية مفردة**" تهتم بسيرة شخصية واحدة، ومن هذا النموذج نذكر "أنس الفقير وعز الحقير"، لابن قنفد القسنطيني، هذا إلى جانب"**مصنفات مناقبية جماعية**" تخص مجموعة أفراد من الأولياء أو الصلحاء أو العلماء....، مثل "عنوان الدارية في من عُرف من علماء المائة السابعة ببجاية "لأبي العباس أحمد الغبريني، وكذا كتاب"البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان"، لابن مريم المليتي، ويختلف طابع هذه المصنفات بين ديني خاص بتعداد مناقب الأفراد، وطابع سياسي خاصب مناقب الملوك، والأمراء، والسلاطين. ليصبح بذلك هذا النوع من المصادر محل اهتمام العديد من الباحثين، وذلك لنفض الغبار عن الكثير من المعطيات التاريخية، وكذا العناصر المهمشة داخل المجتمع، معتمدين في ذلك على مناهج وعلوم أخرى[3].

*** التاريخ الحضاري للمغرب الأوسط من خلال النص المناقبي: المناقب المرزوقية أنموذجا**

إنّ المادة التاريخية المتوفرة لدى الباحث في تاريخ المغرب الأوسط تتضمن المؤلفات الكلاسيكية التاريخية والجغرافية، والأدبية، والفقهية، وكذا كتب الطبقات، غير أنّها تبقى غير كافية لإدراك سلسلة من الأحداث التاريخية ومن الأزمات السياسية والاجتماعية الحادة التي عرفها المجتمع الزياني بالبادية والحاضرة معا، الأمر الذي يحفز الباحث إلى التنقيب عن مصادر أخرى من شأنها أن تساعد على رسم صورة أفضل وأوسع، ويقصد هنا "**المصنفات المناقبية**"، ويرى الأستاذ الطاهر بونابي أنّ هذا النوع من المصنفات خلال الفترة الزيانية متوفر وتعد من ركائز مدوناته التاريخية، لما تخزنه من مادة تاريخية متنوعة تسمح بالكتابة في تاريخه الاجتماعي والذهني والاقتصادي، مضيفا أنّ ما زاد من مصداقيتها قرب

[1]– عبد الأحد السيتي، التاريخ والذاكرة، ط1، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، 2012، ص 99.

[2]– لطفي عيسى، المرجع السابق، ص 41/ الحرف والحرفيون في المغرب الأوسط الزياني من خلال نص المناقب، مجلة الناصرية، مخبر البحوث الاجتماعية والتاريخية، جامعة معسكر، العدد4، جوان 2013، ص165.

[3]– لغزاوي لمياء، التصوف بين البروسبوغرافيا وأدب المناقب، مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة سيدي محمد بن عبد الله، ظهر المهراز، فاس، العدد 19 السنة 25، صص 99– 111/ مجموعة مؤلفين، التاريخ وأدب المناقب، أعمال الملتقى الوطني 8–9 أفريل 1988، منشورات عكاظ، الرباط، 1989/ الطاهر بونابي، الحرف والحرفيون في المغرب الأوسط الزياني من خلال نص المناقب.

أصحابها من السلطان وارتباطهم بالمجتمع البدوي والحضري، الأمر الذي جعل كتاباتهم دقيقة[1]، وعلى هذا الأساس تم اختيار "**المناقب المرزوقية**" من أجل الكشف عن بعض إفاداته المتناثرة والمتنوعة.

حاول ابن مرزوق التأريخ لسلفه ومن عاصرهم من السلاطين والعلماء والأولياء مع الاستطراد في بعض التفاصيل والدقائق عن أسرته ومجتمعه، كما وثّق معطيات مهمة تخص الجوانب الاجتماعية والاقتصادية وحتى النفسية لبعض من ترجم لهم من أعلام الصوفية بتلمسان، وأمور أخرى كثيرة تخص فئة العلماء والمشايخ، وبخاصة المتواجدين بتلمسان، وبهذا يكون قد قدم معلومات تاريخية ذات أهمية تعبّر عن الواقع الذهني واليومي المعيش لدى أفراد المجتمع، كما عكس لنا البعد السياسي والثقافي والاجتماعي، وكذا البعد الديني لبلاد المغرب الأوسط خلال المرحلة الزيانية.

بدأ ابن مرزوق التعريف بسلالة المرازقة وجذورها وما أنجبته من أعلام، مستهلا التعريف بنسبه ومولده ونشأته، وصورة عن حياته ورحلاته وشيوخه الذين التقى بهم وأخذ عنهم في مختلف الأماكن التي زارها، كما يخبرنا عن أهم الوظائف التي تقلدها والمحن التي اعترضته، بالإضافة إلى حديثه عن أفراد أسرته، مبرزا خصال كل فرد من أفرادها مقدما تفاصيل دقيقة حول مولدهم ونشأتهم ومستواهم العلمي وكذا المكانة الاجتماعية التي حظوا بها، معتمدا في نفس الوقت على ثنائية الجمع بين شخصيتهم في الممارسات السلوكية والأخلاقية، ولن نفصل في ذلك كثيرا لوجود العديد من الأبحاث التي اهتمت بتاريخ أسرة المرازقة[2].

1/ المنشآت العمرانية بالمغرب الأوسط من خلال المناقب المرزوقية:

بعد تصفح المناقب المرزوقية تم الكشف عن الكثير من المعطيات التاريخية الهامة والتي ذكرها المؤلّف أثناء تعريفه بسلفه وما كان لهم من مناقب، منها في المجال العمراني؛ فمدينة تلمسان عرفت كغيرها من المدن الإسلامية منشآت عمرانية مختلفَةُ الْوَظَائِفِ.

كثيرا ما يلجأ الباحث في كتاباته عن المنشآت العمرانية للمصادر الجغرافية لأنّها تقدم مادة خصبة وهامة حول العمران، غير أنّ ابن مرزوق قدم نصوصاً لا تقل أهمية عن تلك الموجودة ضمن المصادر الجغرافية، من ذلك الأسوار، فمدينة تلمسان أحيطت بأسوار مدعمة بمجموعة من الأبواب لتسهيل حركة الناس دخولا وخروجا من وإلى المدينة[3]، غير أنّ ابن مرزوق لم يفصل فيما يخص الارتفاع أو المتانة ولا

---

[1]– الطاهر بونابي، المرجع نفسه، ص165.

[2]– سلوى الزاهري، المناقب المرزوقية لابن مرزوق الخطيب، مجلة عصور، جامعة وهران، الجزائر، العدد 6–7جوان–ديسمبر 2005/نوال بلمداني، ابن مرزوق الخطيب وكتاب المناقب المرزوقية/ بن داود نصر الدين، أسرة المرازقة تلمسان من القرن 7هـ/ 13م، دورها وآثارها، رسالة ماجستير، قسم التاريخ، جامعة وهران، 2002–2003.

[3]– ابن مرزوق الخطيب، المناقب المرزوقية، تح سلوى الزاهري، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، ط1، 2008، ص199.

الدور، أمّا الأبواب فذكر: باب زيري[1]، باب الجياد[2]، باب العقبة وكان خارجه أشجار زيتون[3]، باب وهب[4].

ووُجِد خارج بعض الأبواب مقابر، منها مقبرة مسند الصالح تحت باب زيري[5]، وخصص لملوك بني عبد الواد مدافن خاصة بهم أيضا[6]، ولم ينس ابن مرزوق أن يذكر الملاعب الموجودة خارج أسوار مدينة تلمسان، وكان يجتمع فيها العامة والخاصة، وفي العديد من المناسبات[7].

جمعت الأسوار بين جدرانها العديد من المنشآت ذات الطابع الديني ومنها الاقتصادي، ومنها المدني...، وعلى رأسها المنشآت الدينية وهنا يكون الحديث عن المسجد مكان استقبال الطلبة والمصلين ورجال العلم والمتصوفة، وأشهرها "الجامع الأعظم"[8]، كان له عدة أبواب منها باب بالجهة الغربية[9]، هذا بالإضافة إلى مجموعة من المساجد الخاصة بالحارات والدروب، من بينها "مسجد مرسى الطلبة"[10]، وعند بابه سارية، أمّا "مسجد حارة الرماة" فيقول عنه ابن مرزوق: "يعرف في هذه الأعصار بمسجد ابن جحاف، وابن خرزوزة الخطيب"[11]، ويتكون المسجد من صحن ومحراب ودرج[12]، هذا بالإضافة إلى مسجد العزالة بأعلى العباد ينقطع فيه المصلي للعبادة في الليل بعيدا عن الناس[13]، ويضيف ابن مرزوق الخطيب "جامع تفرغنبو"، وعنه يقول: "جامع تفرغنبو، موضع معروف بتلمسان، صار الآن ببعض دور القصر، والمسجد الآن محمول عليه بعض القصر المعروف بأبي قير..."[14] ، وذكر جامع الجُدار[15]،

---

[1]– المصدر نفسه، ص148.

[2]– نفسه، ص153– ص 184.

[3]– نفسه، ص174– ص 194.

[4]– نفسه، ص 153– ص187.

[5]– نفسه، ص148.

[6]– نفسه، ص167.

[7]– نفسه، ص256.

[8]– ابن مرزوق الخطيب، المصدر السابق، ص155– 187

[9]– المصدر نفسه، ص275.

[10]– نفسه، ص154، 167، 176، 199، 239.

[11]– نفسه، ص154.

[12]– نفسه، ص154، 167، 286 .

[13]– نفسه، ص155.

[14]– نفسه، ص158.

[15]– نفسه، ص 186.

ومسجد إيلان[1]، ومن الواضح أنّ بعض المساجد كانت تزين بالرغم من نهي الفقهاء على فعل ذلك، فجامع القصر الجديد بتلمسان، كان منقوشاً ومزوّقاً إلى حد الإزار[2].

أرفقت المساجد بكتاتيب لتعليم الصبيان، وهو ما يوضحه ابن مرزوق بقوله: "وكان الصبيان يقرؤون تحت المسجد، في مساطب بُنيت..."[3]، والتحق هو أيضا في صغره بالمكتب[4].

أمّا الدور فكانت متلاصقة تفصل بينها دروب صغيرة وأحيانا كبيرة، وتحتوي الدروب على أبواب في أولها حتى لا يدخلها الغرباء إلاّ مَنْ أُذِنَ له[5]، وزودت الدور ببئر لقضاء الحاجة والضروريات[6]، كما خصص لتصريف المياه ونقلها إلى الدور قنوات ومطاهر وصبور[7]، ولم يتردد ابن مرزوق في وصف الدور التي سكنها هو أو أسلفه مقدما في ذلك أوصاف دقيقة، حتى موقعها وتواجدها داخل الدرب، من ذلك قوله: "كان الموضع الذي فيه دارنا، زُقيْقا غير نافذ، وهو متصل بالقصر، وفيه باب يعرف بباب الغدر"[8]، أمّا عن دار سكنى جدّه لأمّه فيقول: "... الدار التي بحارة الرماة، في آخر السكة الرابعة، التي تعرف بابن الجحاف..."[9]، وفي الواقع قلّما نجد هكذا أوصاف ضمن نصوص المصنفات المنقبية.

لم يكتف ابن مرزوق بذكر الدور ومنافذها، بل أضاف معلومات هامة عن أهم الدروب بمدينة تلمسان، على رأسها "**درب شاكر**"، وهو من الدروب الكبيرة يقطنه التاجر أبو زيد وكان أكثر الدرب له، ولعماله وخدامه. وكان له داخل نفس الدرب، درب يختص به والدور التي عيّن لأبنائه، ويفصل ابن مرزق في وصفه لهذه الدور فيقول: "أدركت الدار الكبرى، وتتصل بها دار تعرف بدار الإنجاصة، تتصل بها دار تعرف بالدار الجديدة، وهي مواضع سكناه والخاصة به. وتتصل بهذه الدور الثلاثة، دور أخرى لأولاده وخدامه. وخارج هذا الدرب الصغير، درب كبير..."[10]، أمّا "**دريبة ابن الذيب**"، بالسبطريّين فهي عبارة عن درب صغير مغلق يوجد في ظهر السجن الكائن بالسراجين[11]، وذكر "**درب ملالة**"[1]، أمّا فيما

---

[1]– نفسه، ص190.

[2]– نفسه، ص 203.

[3]– نفسه، ص158.

[4]– نفسه، ص240.

[5]– نفسه، ص182.

[6]– نفسه، ص156– ص188.

[7]– نفسه، ص172.

[8]– ابن مرزوق الخطيب، المصدر السابق، صص 240–241.

[9]– المصدر نفسه، ص277

[10]– نفسه، ص189.

[11]– نفسه، ص275.

يخص مرسى الطلبة فيذكر أنّ هذا الموضع كان دربا واحدا، وله باب عند مدخل الدرب، وفيه مسجد له طاقة كبرى وطاقة صغرى تحت الدرج، وبنيت تحت المسجد مساطب[2]، ويستعمل ابن مرزوق مصطلح الزنقة منها زنقة حجامة وبها كانت دار التنسي[3].

لقد كان ابن مرزوق دقيقا في أوصافه، وفرق بين عناصر الحي باستعماله للمصطلح الموافق لكل واحد منهم، كاستعماله لكلمة "**درب**" ويقصد به باب السكة الواسع، وهو أيضا الباب الأكبر[4]، أمّا "**الزنقة**" فيقصد بها السكة الضيقة[5].

لم ينس أفراد المجتمع وبخاصة بالبادية أخذ التقلبات المناخية والاضطرابات السياسية بعين الاعتبار، إذ عملوا على إرفاق أماكن سكناهم بمخزن[6] أو مطمورة[7]، لحفظ الحبوب وما يمكن تخزينه لوقت الحاجة، وذكر ابن مرزوق الخطيب هذان المصطلحان عدة مرات عند كشفه عن كرم أسلفه واتساع صدقاتهم.

لا يمكن الحديث عن المدينة إذا لم نقف عند منشآتها التجارية، والتي كثيرا ما تردد ذكرها لدى صاحب المناقب المرزوقية، وهي "قيساريات"[8]، وتعرف على أنها حي تجاري كبير، يتكون من مجموعة من الدكاكين، والمحلات التجارية، وورشات صناعية، ومخازن وفي بعض الأحيان مساكن فوق الحوانيت وبها فنادق يؤمها التجار الأجانب، ويذكر ابن مرزوق امتلاك أبا عبد الله ابن مرزوق حانوتا بالقيسارية ينسخ فيها القرآن[9]، حتى ابن القطان كان له حانوتا بالقيسرية يسترزق منه[10]، يبيع ويشتري، وكان البرنس (الغفارة) من بين سلع الحانوت[11].

*** جوانب من التاريخ الاجتماعي للمغرب الأوسط من خلال المناقب المرزوقية:**

---

[1]– نفسه، ص181.

[2]– نفسه، ص183.

[3]– نفسه، ص199.

[4]– ابن منظور، المصدر السابق، مادة (درب)، ج5، ص236

[5]– المصدر نفسه، مادة (زنق)، ج7، ص65.

[6]– ابن مرزوق الخطيب، المصدر السابق، ص 236.

[7]– المصدر نفسه، ص 191.

[8]– ابن مرزوق الخطيب، المصدر السابق، ص148، ص276

[9]– المصدر نفسه، ص148.

[10]– نفسه، ص276

[11]– نفسه، ص276

تعددت الجوانب الاجتماعية الواردة ضمن المصنف المناقبي ولا تقل أهمية عن الجوانب الأخرى، منها التكافل الاجتماعي بين أفراد المجتمع، كمساعدة اليتامى والفئة المستضعفة من خلال التصدق والإنفاق عليها، فوالد ابن مرزوق كان له مطامير من القمح والفحم ويدخر اللحم (المسلي أو الخليع)، والزيت، إذ كان يوم الثلج فتح مطمورة من قمح وأخرى من فحم ليتصدق منهما طول يومه، فلا يرجع إلى داره حتى يفرغ من المطمورتين[1]، ومنهم من خصص لكل يوم خبزا للصدقة، وثيابا في كل سنة[2]، وهناك من خصص صدقته على الضعيف والمستتر والسائل كل جمعة بالقمح والدراهم، مع كسوة جماعة من أهل الخير و عيالهم كل سنة[3]، ومن أجداد ابن مرزوق من كان "وجيها سريا موسعا عليه، كثير الصدقات الصدقات وأعمال البر، له جرايات على الطلبة وأهل الدين والخير"[4]، ولم يكن التخزين وكنز محببا لأسلاف ابن مرزوق فهناك من كان يتعيّش من عملية النسخ، فإذا حصل له نصيب من النسخ، تمسك منه بما يقتات به، ويتصدق بالباقي[5].

وعن جدّه لوالده يقول ابن مرزوق: "كان يحرث بفرد واحد في موضع صغير– وصُفي، ولم يبق إلا أن يُنقل ويُخرج، فيجلس بإزائه، ويأخذ حفنة منه، ثم يرميها فيه، فيكتال بين يديه للضعفاء والمحتاجين الذين يحضرون، والذين جرت عادته بإعطائهم، حتى إذا فرغوا، صرف الناس، وأمر بحمل ما بقي لداره من غير كيل، فيأكل منه عياله، ويتصدق منه الصدقة الكثيرة طول سنته[6]، والنصوص حول ذلك كثيرة، و في الواقع كلّها تؤكد وجود طبقة من المهمشين لقيت اهتماما من قبل أفراد المجتمع.

أمّا النصوص الكاشفة عن العادات والتقاليد داخل المجتمع فتنوعت هي الأخرى، منها جهاز العروس يوم زفافها، وما كانت تحمله من فرش، وملبس، وحلي، ويصف ابن مرزوق ما جهزت به جدته أم والده، فيقول: "أخرج لها حليا كثيرا وفرشا، وغير ذلك... وأخبرتني خالة مولاي الوالد، انه عمل لكل بنت من بناته، وكنّ جملة، حليا بألف دينار من الذهب، عدا ما جعل لهن من الفرش والثياب؛ وأعطى

---

[1]– نفسه، ص191.

[2]– نفسه، ص191.

[3]– نفسه، ص 163.

[4]– نفسه، ص 188.

[5]– نفسه، ص185.

[6]– ابن مرزوق الخطيب، المصدر السابق، ص160.

لكل من بنيه نحو ذلك"[1]، كما كانت العروس تقوم بعدة تحضيرات قبل خروجها من بيت والدها، وتزين نفسها وتختضب الحناء[2].

كما تنوعت المأكولات لدى أفراد المجتمع التلمساني حسب مستوى دخل الفرد، أو نظرته للدنيا وضرورة الزهد فيها، علماً أنّ ابن مرزوق ترجم لمجموعة من المتصوفة والزهاد، إذا يتحدث عن أبي بكر بن مرزوق قائلا: "غالب فطره كان على قشرة من خبز، وثلاث بيضات مدفئات على النار، يجعل فيها يسير ملح، ويأتدم بها ثم اقتصر على اثنتين مدة،...وكان يأكل اللحم أحيانا، وربما يجعل له، في أيام فطره، يسيرا من الطعام الذي يعرف بالبركوكش، وهو المعروف بالمفتلة عند المشارقة، بيسير زبد أو سمن"[3]، وكان أكثر أكل والد ابن مرزوق الخطيب "ثريدا من الخبز الخمير، بإدام خفيف من سمن، أو شحم ويتأدم باللحم أحيانا"[4]، وأحيانا أخرى "كان يأكل الخضر، ويأكل من اليابسة التمر والزبيب والتين"[5]، والتين"[5]، فطعام الزهاد والمتصوفة كان بسيطا، يعتمد في الغالب على إدام وخبز وملح من أجل سد رمق الجوع فقط، لإتباعهم بساطة العيش، فالأمر هنا لا يتعلق بالفقر والغنى، كما لا يمكن تعميم هذا النوع الأطعمة على كل طبقات المجتمع.

غير أنّ الأطعمة التي كانت تحمل في السفر تميزت ببساطتها وخفت وزنها، منها "الفداوش" المعروفة لدى أهل المغرب، أمّا لدى بعض أهل إفريقية فعرفت ب"الدوداذ"، أمّا أهل الديار المصرية فيسمنها "الأطرية"، كما كان المسافر يأخذ معه المحمصة[6]، وهنا نجده يعرّف بأسماء الأطعمة حسب المجال الجغرافي، وفي الواقع كلها تعتمد على الحبوب بالدرجة الأولى.

أما الملبس فقد ذكر ابن مرزوق عدة أنواع منها المحلي ومنها ما له تأثر بالعالم الإسلامي، وهو ما يمكن ربطه بمسألة التواصل الحضاري بين مختلف المجتمعات الإسلامية، فعند وصفه للباس والده يقول: "كان يتجمل في لباسه. فلباسه الجربي، والمثني الرفيع التلمساني، وأكثر ألوان لباسه الأخضر المسني، والزرعي والهندي وكان يعتم مقلة. ويلبس الحازر الإسكندرانية، والأحارم التونسية"[7]، ولبس أبو عبد الله بن

---

[1]– المصدر نفسه، ص 163.

[2]– نفسه، ص 168.

[3]– نفسه، ص 159

[4]– نفسه، ص 222.

[5]– نفسه، ص222.

[6]– نفسه، ص197.

[7]– ابن مرزوق الخطيب، المصدر السابق، ص 224.

بن عيسى "أفخر الثياب مما يحاكي بلبسه الملوك "[1]، ويشير في نص آخر عند حديثه عن جده قائلا: "كان... ووالده وأولاد، يتجاملون ويلبسون أحسن الثياب. في أيام المصيف، البياض، والملاحف التونسية، والأحارم"[2]، ويتضح من هذه الأوصاف أنّ كلّ منطقة اشتهرت بنوع معين من اللباس.

والظاهر أنّ لباس المتصوفة وأصحاب الكرامات اختلف عن مواقفهم بالنسبة للأكل، لكن هذا لا ينفي وجود بعض الأفراد المتقشفين في مأكلهم وملبسهم مع اكتفائهم بالضروري، منهم جده لأمّه إذ يفيدنا ابن مرزوق قائلا: "كان يلبس المرقعة بين ثيابه، وأدركتها من جبة صوف سوداء، مبطنة بخرقة سوداء، محشوة بالقطن، مرقعة. ويلبس فوقها بدنا أخضر، أو أسود، وغفارة خضراء، وكانت له أخرى زيبيبة ويتعمم عمامة فقهاء أهل افريقية الآن، وهي كانت عمائم أهل تلمسان، في القديم"[3]، ولعل المتأمل للنصوص أعلاه يلاحظ تفضيل المتصوفة للون الأخضر وذلك لدلالات روحية من كونه يرتبط ارتباطا وثيقا بمراتب النفس، التي ترضى في سيرها طوعا لمرضاة الحق[4].

وأحيانا أخرى نجد من يمزج بين المظهرين، كأبي عبد الله بن عيسى الذي قال عنه ابن مرزوق: "يصبح أياما وقد لبس افخر الثياب مما يحاكي بلبسه الملوك، ثم يصبح أياما في مرقعة لاشيء دونها. ثم يصبح أياما مستحلا في كساء"[5]، وخص الفقهاء والفرسان بزي خاص[6]، حتى لبس الجاليات الأندلسية كان له حضور لدى ابن مرزوق، إذ يصف أحد التجار الأندلسيين قائلا: "ونزل... بثياب بيض، وشاشية حسنة، على تودة، بقبقاب في رجليه"[7]، ولعل هذا ما يساعد على دراسة التواصل الحضاري بين المغرب الأوسط وباقي مناطق الغرب الإسلامي، وتبادل الثقافات بين الأفراد.

كما استوقفتنا أثناء تصفح المصنف المنقبي العديد من الإشارات الهامة دالة على أهم عناصر المجتمع من الطبقة العامة والخاصة، مشيرا إلى القضاة، والخطباء، والحجاب، والوزراء، والحرفيين وغيرهم[8]، هذا إلى جانب فصله بين أهل المدن وسكان البادية، مع كشفه لشريحة من المجتمع كان أفرادها

---

[1]– المصدر نفسه، ص 177.

[2]– نفسه، ص 158

[3]– نفسه، ص280.

[4]– ينظر ضاري مظهر صالح، دلالة اللون في القرآن والفكر الصوفي، دار الزمان للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق، ط1، ط1، 2012، ص47 وما بعدها.

[5]– ابن مرزوق الخطيب، المصدر السابق، ص177.

[6]– المصدر نفسه، ص241.

[7]– نفسه، ص 173

[8]– ابن مرزوق الخطيب، المصدر السابق، ص 172 وما بعدها.

أفرادها يتطاولون على أملاك الغير، إنهم اللصوص، ومن النصوص الكاشفة عن ذلك قوله: "حدثني غير واحد من أهل تلمسان وأهل العباد، أن رجلا كان يسرق الفاكهة من جنان العباد..."[1].

كثيرا ما تناولت المصنفات الفقهية نوازل الميراث وتقسيمه على أفراد الأسرة، وحفظ حق الغائب، وهو ما لاحظناه من خلال نص ابن مرزوق، كقوله: "... ميراث والدتي... عدد خمسمائة دينار من الذهب، فلما كبرت وصرت في مقام الطلب، ودلني أقاربي على طلب ذلك من بعض أقاربي، فاحتيج إلى أن وكل عني، وتقدم الوكيل للطلب، وتعين المال على من تعين عليه من المطلوبين، وتعين أيمان على بعضهم، قال لي: يا بني ! دع هذا عنك، وأنا أشهد لك بهذا العدد من مالي، ولا تقابح قرابتك، والله يعينك"[2]، وعند حديثه عن والده يقول: "ولما توفي والده، على حفيده، شيخنا الإمام أبي موسى بن الإمام، وكانت وفاته بعد وفاة أمه، وأحاط بميراثها، بعث إليه الفقيه أبو موسى المذكور بالتركة، فقال: معاذ الله، وإن كان مالا مباركا حلالا، إلا أن والدها أحق مني فيه، فحلف عليه، ولم يتماسك منه إلا بلحافين ومخدتين ورداء وكساء، حياء منه وحشمة... وكذلك فعل في ميراث، صار له من أمه، تحصل تحت يد أخواله، ثم تحت بينهم. فلم يطلب منهم شيئا، وكتب لهم مبارأة"[3].

وعن عمه يخبرنا قائلا: "لما توفيت زوجته، ست الملوك، بنت الهواري، وكانت قبله تحت السلطان المرحوم أبي حمو موسى بن عثمان، فخلفت حليا وخدما، ودواب وبقرا، وفرشا كثيرا، وورثها ولدها من غير السلطان أبي حمو، أبوه يحي بن حازم، فلما التركة قال له ابنها، وكان له كالولد: يا سيدي ! خذ ما تريد، واعطني ما يهون عليك. فقال له: يا بني ! قد أغناني الله بحلالي، والله لا أتماسك لك بوبرة..."[4].

*** جوانب من التاريخ الاقتصادي بالمغرب الأوسط من خلال المناقب المرزوقية:**

ساعدت التراجم التي قدمها ابن مرزوق على إعطاء لمحة عن النشاط الحرفي والتجاري والتواصل الحضاري بين مختلف حواضر المغرب الإسلامي وخاصة بين تلمسان وفاس. إذ يخبرنا أنّ أبا العباس بن القطان كان يتسبب بالخياطة وبالسفر أحيانا، ومارس التجارة يبيع ويشتري، كان يخرج إلى فاس، وسبتة، يبيع ويشتري، وكان يعود بأحمال البز السبتي، وسافر إلى بجاية تاجرا وحمل بعض المتاع، باع واشترى، وجاء به إلى تلمسان ففتح الله عليه واتسع حاله، وكثر ماله[5]، والنشاط الحرفي عامة، وعلى وأسه وأسه الخياطة كانت مصدر عيش لكثير من الأولياء، فالشيخ أبو إسحاق إبراهيم بن علي الخياط مثلا

---

[1]– المصدر نفسه، ص163، وغيرها

[2]–نفسه، ص 244.

[3]– نفسه، ص244– ص245.

[4]– نفسه، ص 245

[5]– ابن مرزوق الخطيب، المصدر السابق، 162.

كانت له حانوت يجلس فيها للخياطة[1]، ومنهم من احترف "بإقامة عمل الحاكة من الصوف الرفيع، التي كانت تلمسان تختص به"[2].

لم يخلو المصنف المنقبي من إشارات دالة على الممارسات الحرفية وتنظيماتها، من ذلك تربيعات ابن النجار وعنها يقول ابن مرزوق: "... كانت له تربيعات بموضعه من درب شاكر، وكان أكثر هذا الدرب له، ولعماله وخدامه"[3]، وما يمكن قوله أن جودة وتنوع المنتجات التلمسانية ساعدها على اكتسابها شهرة حتى أن ملوك افريقية والمغرب، كانوا يلبسون ما كان يعمل بتلمسان من رفيع الصوف، لاختصاصها بذلك[4].

كما أفادنا ذات المصدر بوجود عدّة أنشطة حرفية، منها الفلاحة وخدمة الأرض؛ فالجد الأكبر لابن مرزوق كان بالبادية يشتغل بالفلاحة والحراثة[5]، وكان أبو عبد الله المستاري وابن أخاه يتعيشان من أرض لهما بموقع "أغلان" من بني مستار[6]، ومنهم من مارس الرعي، وهو من الحرف المحببة للأولياء الصالحين، والمتصوفة الزهاد، فابن مرزوق الخطيب يشير إلى أنّ حسين بن الجلاب كان "يتجر بجلب الغنم من جهة قوم صالحين، فيشتري منه أهل الورع..."[7]، حتى الجدّ الأكبر لابن مرزوق من أمه كان يحترف في البادية الحراثة واكتساب الماشية[8]، لدرجة أنّ والد ابن مرزوق ترك له وصية يحثه فيها على أن يتسبب في الحراثة والتجارة[9]، هذا إلى جانب أنشطة حرفية أخرى، إذ مارس بعض الأولياء حرفة النسخ النسخ ومنها كان عيشه[10] ، وحرفة حفار القبور[11]، كما وردت إشارة هامة لدى ابن مرزوق تؤكد على

[1]– نفسه، ص192

[2]– نفسه، ص188– ص189.

[3]– نفسه، ص188– ص189.

[4]– نفسه، ص189.

[5]– نفسه، ص147.

[6]– نفسه، ص184.

[7]– نفسه، ص162.

[8]– نفسه، ص273

[9]– نفسه، ص252.

[10]– نفسه، ص 185.

[11]– نفسه، ص177.

وجود حرفة حمل العجين إلى الأفران[1]، إلى جانب حرفة لها علاقة بصناعة الخشب، إنّها صناعة الخرط[2].

وتشير بعض النصوص إلى نشاط التجار بالمغرب الأوسط داخل المجال الجغرافي وخارجه نتيجة للإقبال الواسع على منتوجاتهم المصنعة، وهو ما يؤكده ابن مرزوق قائلا:"حدثني عمي،.... قد ذكر اتساع حاله – أبو زيد ابن النجار– أن قافلة وردت تلمسان من تونس، وكانوا يجلبون ثياب الكتان، ويحملون ثياب الصوف، قال فباعوا واشتروا، وأكثروا الشراء من عنده، وخرجوا مسافرين لتونس"[3]، ليس هذا فحسب بل منطقة المغرب الأوسط شكلت همزة وصل بين مختلف مناطق الغرب الإسلامي؛ إذ كان الأندلسيون يقوم بشراء سلع من تونس ويمرون بتلمسان قبل مغادرتهم إلى موطنهم[4].

مثلما اهتم بن مرزوق بتحديد أهم مرافق المدينة نجد يهتم أيضا بذكر عناصر السوق، وذلك بتوظيفه لمصطلحات لكل منها دلالاته، كذكره للقيسارية، الحانوت، الدكان، مما يؤكد على وجود حركة تجارية هامة داخل أسواق مدينة تلمسان، منها قوله عن أبي عبد الله بن مرزوق: "وكانت له في حداثته حانوت بالقيسارية ينسخ فيها القرآن، ويبيع السلع"[5]، وكان لأبي إسحاق إبراهيم بن علي الخياط حانوتا يجلس فيها للخياطة[6]، أمّا عن جده فيقول: "جلس على دكانة بباب الدرب"[7].

لا يمكن الحديث عن التجارة ونمط العيش بالحاضرة الزيانية، دون التنويه للمقومات الطبيعية التي خُصّت بها تلمسان، لاسيما بالنسبة لتنوع المحاصيل الزراعية، فابن مرزوق كان له فدان يزرعه مشاركة فيه بعض أصحابه من أهل زيدور[8]، كما أنّ طبيعة المنطقة ساعدت على انتشار زراعة الحبوب من قمح وشعير، وكذا الفواكه على رأسها السفرجل، والتين، والرمّان، والتّفاح، والزيتون، والبطيخ، وهو ما يؤكد على الاهتمام بعملية البستنة، وعرف العباد بانتشار الجنان ذات الفاكهة الطيبة من تين وسفرجل ورمان وغيرها[9]، وما يلفت الانتباه بالنسبة للمصنف المناقبي أنّ ابن مرزوق ذكر بعض الأسر ذات الوجاهة

---

[1]– ابن مرزوق الخطيب، المصدر السابق، ص 245.

[2]– المصدر نفسه، ص275.

[3]– نفسه، ص190.

[4]– نفسه، ص172.

[5]– نفسه، ص148

[6]– نفسه، ص180.

[7]– نفسه، ص170.

[8]– نفسه، ص222

[9]– نفسه، ص164.

ومكانة على المستوى التجاري، ومن ذلك قوله حول بني النجار، إذا كانوا جماعة تجار ميسورون، منهم بتلمسان، ومنهم بمكناسة، ومنهم خلف بفاس[1].

الخاتمة:

تعتبر كتب مناقب الأولياء والصالحين والعلماء من المصادر الهامة للبحث في التاريخ الحضاري، فهي تفيد الباحث المؤرخ في التعرف على تطور الفكر، وطرق الاستدلال الشعبي، وفي الأخير يمكن القول اعتمدا على نموذج "المناقب المرزوقية" أن المصنفات المناقبية لا تخلو من الاستطرادات المتعلقة بجوانب من حياة البلاد الداخلية، وكذا علاقتها الخارجية، وتضم في نفس الوقت معلومات تتعلق بالمجتمع، والعمران، الاقتصاد، العادات والتقاليد.....

يمكن أن نعتبر المصنف المنقبي وثيقة إجتماعية على درجة عالية من الأهمية تقدم مادة خصبة وهامة، تمتاز بالدقة والأصالة تكشف عن جوانب هامة من التاريخ الثقافي والسياسي والاجتماعي وحتى الاقتصادي والعمراني، تساعد الباحث على رسم صورة واضحة عن المجتمع من كل جوانبه، وربما انفردت بنصوص لا نجدها في المصادر التاريخية الأخرى التي تناولت فترة زمنية معينة.

قائمة المصادر والمراجع:

1- ابن منظور، لسان العرب، دار صادر، بيروت، د/ط، د/ت

2- ابن مرزوق الخطيب، المناقب المرزوقية، تح سلوى الزاهري، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، ط1، 2008.

3- الفيروزآبادي، القاموس المحيط، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ط8، 2005.

4- الطاهر بونابي، الحرف والحرفيون في المغرب الأوسط الزياني من خلال نص المناقب، مجلة الناصرية، مخبر البحوث الاجتماعية والتاريخية، جامعة معسكر، العدد4، جوان 2013.

5- بن داود نصر الدين، أسرة المرازقة تلمسان من القرن 7هـ / 13م، دورها وآثارها، رسالة ماجستير، قسم التاريخ، جامعة وهران، 2002-2003.

6- خديجة السمعلي، الفكر الصوفي من خلال مناقب أبي سعيد الباجي، مؤسسة مؤمنون بلا حدود للدراسات والأبحاث ، المملكة المغربية، الرباط.

7- سلوى الزاهري، المناقب المرزوقية لابن مرزوق الخطيب، مجلة عصور، جامعة وهران، الجزائر، العدد 6-7جوان-ديسمبر 2005.

8- ضاري مظهر صالح، دلالة اللون في القرآن والفكر الصوفي، دار الزمان للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق، ط1، 2012.

9- عبد الأحد السيتي، التاريخ والذاكرة، ط1، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، 2012.

[1]- نفسه، ص191.

10- لطفي عيسى، مدونة المناقب ببلاد المغرب من القرن 10 إلى 17م عرض منهجي، المجلة التونسية للعلوم الاجتماعية، تونس، العدد 130، 2005م.

11- لمياء لغزاوي، التصوف بين البروسبوغرافيا وأدب المناقب، مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة سيدي محمد بن عبد الله، ظهر المهراز، فاس، العدد 19 السنة 25.

12- مجموعة من المؤلفين، التاريخ وأدب المناقب، أعمال الملتقى الوطني 8-9 أفريل 1988، منشورات عكاظ، الرباط. 1989.

13- نوال بلمداني، ابن مرزوق الخطيب وكتاب المناقب المرزوقية، عصور الجديدة، مختبر البحث التاريخي، تاريخ الجزائر، جامعة وهران، الجزائر، العدد 3-4، 2011/ 2012.

14- هشام عبيد، تونس وأولياؤها الصالحون في مدونة المناقب الصوفية، مركز النشر الجامعي، تونس، 2006.